نشأة مدن كلباء خورفكان دبا الفجيرة دبا الحصن وتطورها التاريخي

د. إبراهيم الدرمكي

أستاذ مساعد

قسم الدراسات الدولية جامعة زايد

الملخص

أشارت المسوحات والحفريات الأثرية القديمة على ازدهار العمران في المنطقة الشرقية من دولة الامارات العربية المتحدة. فقد كان استغلال النحاس في "جبال الحجر" أحد التفسيرات الرئيسية للبناء العمراني خلال الألفية الثانية قبل الميلاد في كل من كلباء وخورفكان ودبا الفجيرة ودبا الحصن.

في الفترات التاريخية الأخيرة، كان لعدم الاستقرار السياسي والغزو الأجنبي تأثيرا كبيرا على النمو العمراني خلال هذه الفترة، فضلاً عن انتشار نمط من البناء الذي اعتمد على مواد قابلة للتحلل مثل الطين والحجارة وسعف النخيل والتي لم تستطع الصمود امام عوامل التعرية لفترات طويلة.

لعبت سهولة الدفاع والحماية دورًا رئيسيًا في اختيار مواقع المدن في مراحلها الأولى، ومن هنا جاءت فكرة بناء الأبراج والقلاع للسكان القدامى. تكيفت مورفولوجيا القرى والمدن مع موقعها على ساحل البحر وعلى ضفاف الأودية. وكان للتحولات السياسية انعكاسا على النمو الحضري في مدن المنطقة، حيث اتسمت في الماضي بهيمنة أسلوب البناء الدفاعي المتمثل في القلاع والأبراج. كما يمكن الإشارة إلى الدور السياسي البارز لمدن ومراكز الساحل في الهيمنة على القرار السياسي.

تعود معظم معاني أسماء المدن والقرى ودلالاتها الى مكونات البيئة الطبيعية كالنباتات والسمات الطبوغرافية للأرض، مثل اسم كلباء الذي يعود الى شجرة الكلب ومفرده كليبة" وهي شجرة سطحية تعرف بكثافة شوكها الذي يبدو كالكلاليب. كما لوحظ وجود أسماء تعبر عن الاستجابة البشرية كالحماية والتحصين مثل "السور" التي كانت بمثابة نطاق أمن وحماية وسور حماية لمدينة كلباء. أما اسم "اللوليّة" حاليا تعرف بـــ "اللؤلؤية" يحتمل أنه جاء من اللؤلؤة، و"البثنة" يعتقد أن أصلها "البستان" لكثرة الخضرة فيها، كما لوحظ وجود أسماء تعكس الأبعاد التاريخية مثل "المهلب" في دبا والمحطة في كلباء.

مقدمة

احتلت دراسات التاريخ الحضري نقطة وسط تلتقي عندها العلوم التاريخية والإنسانية والطبيعية، وتميزت بتفردها بخاصية تحليل وتفسير العلاقات المكانية للظاهرات الجغرافية المختلفة.

وقد شهدت مدن دولة الامارات منذ الاتحاد تغييرات وتحولات كبيرة، وتزايد الاهتمام بالدراسات الحضرية وذلك لاختلال التوازن بين السكان والأرض في الدولة، نتيجة لارتفاع كثافة السكان عامًا بعد عام، وتزايدهم بمعدلات كبيرة في ضوء ضيق الأراضي القابلة للتوسع العمراني، خصوصا في مدن المنطقة الشرقية من البلاد.

لذلك تتناول هذه الدراسة كيفية نشأة وتطور مدن كلباء وخورفكان ودبا الفجيرة ودبا الحصن وتقع في المنطقة الشرقية من دولة الامارات العربية المتحدة. تضم هذه المدن عدة توابع وقرى، وتبلغ مساحتها الاجمالية مع توابعها الريفية حوالي ١٢٥٤ كيلو مترًا مربعًا.

تم اختيار هذا الموضوع لكون مدن دبا وكلباء وخورفكان مدنا قديمة وذات شأن كبير في التاريخ الاماراتي، فقد بلغت في الزمن القديم قدرًا كبيرًا من الأهمية، مثل دبا، التي كانت قاعدة لإقليم كبير قبل العصر الإسلامي. فضلا عن كون هذه المدن تلعب دورا استراتيجيا بارزا لأهمية موقعها الجغرافي خارج نطاق مضيق هرمز. لذلك، تسلط هذه الدراسة الضوء على بعض المشكلات التي تعاني منها هذه المدن أملًا في إيجاد بعض الحلول المناسبة لها، والتي يأتي في مقدمتها ضيق الأراضي الصالحة للاستخدام السكني نتيجة زيادة النمو العمراني.

في الواقع، ما زالت الدراسات المتعلقة بنشأة وتطور المدن في دولة الإمارات في مهدها خصوصًا مدن الساحل الشرقي التي لم تلقى الشيء الكثير من الدراسات الحضرية. وإذا ما بحثنا عن نشأة مدن المنطقة وتطوراتها فإن التعمير والتحضر لم يكن وليد العصر الحالي بل له بعد تاريخي محدد مرتبط باستراتيجية التجارة البحرية القديمة في الإقليم الشرقي. لذلك يهدف هذا البحث عن كشف بدايات العمران في مدن الساحل الشرقي، وتطور الخارطة العمرانية للقرى والمدن فيها وتسليط الضوء على الجانب السياسي واثره

على تطور هذه المدن. يهدف البحث أيضا الى إضافة تطـورات العمـران فـي المـدن المذكورة حتى عام ٢٠٠٠، وتوضيح اتجاهات النمو العمراني المستقبلي فيها. كما يهـدف الى تحديد المواضع القديمة للمدن، ودراسة أثر الموضع على النمو العمرانـي الحـديث، وتحديد اتجاهاته. وأخيرا يسعى البحث الى تفسير وتحليل دلالات أسماء المدن والقرى في المنطقة لمعرفة دلالاتها القديمة وعلاقتها بالمكونات الطبيعية والأحداث التي مرت عليهـا عبر العصور التاريخية.

تنوعت المناهج المستخدمة في البحث ما بين استخدام المنهج التاريخي، فـي دراسـة التطور التاريخي للعمران في مدن المنطقة، الى الاعتماد على الجانب العملي من خـلال الزيارات الميدانية في دوائر التخطيط العمراني والبلـديات بهـدف رصـد التطـورات العمرانية للمدن منذ عدة عقود لغاية عام ٢٠٠٠ م، مضمناً البحث بعض الطرق والخرائط الكارتوجرافية، والصور الجوية.

كما تم الاعتماد على الكتابات والدراسات السابقة، بالإضافة الى البيانـات الحكوميـة الإحصائية المنشورة، والغير منشورة والتي تم الحصول عليها من الجهات الحكومية سواء ما كان منها على المستوى المركزي في العاصمة أبو ظبي، أو على المستوى المحلي في المدن.

ساعدت الدراسة الميدانية في التعرف على بعض مشكلات منطقة الدراسـة وتفسـير بعض الظاهرات التي لا يمكن معرفتها جيدًا إلا من خلال القيام بزيارات ميدانية متكـررة إلى مدن وقرى منطقة الدراسة شملت أخذ الصور الفوتوغرافية، ولقاءات المعمرين مـن بعض السكان التي كان لها قيمتها الكبيرة في عملية التحليل، كما مكنت تلك الزيارات من الوقوف على شكل وخصائص العمران ومشكلاته في الإقليم ومدنه.

تاريخ الساحل الشرقي عبر العصور

عند دراسة تاريخ منطقة الساحل الشرقي بدولة الإمارات العربية المتحدة، لابد من الإشارة إلى عاملين هامين:

أولهما، أن التاريخ القديم للمنطقة ككل التواريخ القديمة يحيط بها الغموض ويكتنفها الشك، لأن معظمها ينسب لأعمال الحفريات واكتشاف الآثار القديمة.

وثانيهما، أن منطقة الساحل الشرقي والمناطق المجاورة لها سواء في عمان أو في دولة الإمارات، تشكل إقليمًا جغرافيًا وتاريخيًا واحدًا، ومن الصعوبة بمكان تناول إحدى هذه المناطق بمعزل عن الأخرى. ذلك أن موقع المنطقة وحساسيتها جعلاها تدخل في خضم الأحداث وتدور في فلك كل الحوادث في المنطقة.

١. الساحل الشرقي في عصور ما قبل التاريخ

أشارت المسوحات والتنقيبات الأثرية التي أجريت في المنطقة إلى وجود آثار تمثل مختلف المراحل التاريخية للمنطقة، بدءًا من العصور الحجرية وانتهاء إلى العصر الحديث وتفترض "كاي" "kay" أن السكان قد عمروا أرض الإمارات خلال فترة رطبة استمرت ما بين ٩٠٠٠-٦٠٠٠ سنه قبل الميلاد(١). من هذه الآثار اكتشاف مصطبة حجرية على جوانبها وأعلاها عدد من القبور الفردية والجماعية في قرية طريف في كلبـــــــاء، وقد تم تأريخ نفس طرز هذه القبور في مناطق أخرى من الدولة إلى أواخر الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد، كما تم اكتشاف قبور شبيهة بهذه في منطقة البديه في الفجيرة.

إن القبور العديدة والتي بلغت (٣٦) قبرًا المكتشفة في غرب مدينة كلبـــــــــاء في طريف بمساحتها الشاسعة، وحالتها الجيدة تجعلها من أهم الآثار وأكثرها كمالاً التي تم الكشف عنها في الجزيرة العربية حتى الآن(٢). كما أشارت بعثة الآثار البريطانية برئاسة "كارل فيلبس" من معهد الآثار جامعة لندن إن استيطان كلبـــــــــاء، بدأ قبل خمسة آلاف عام أو أكثر، حيث ركزت هذه البعثة الأعمال على بقايا مستوطن واسع يقيم داخل بساتين المدينة إلى الغرب من المقبرة، وأظهرت التنقيبات وجود بقايا معمارية بحالة جيدة مشيدة باللبن إلى ارتفاع أكثر من ثلاثة أمتار تتكون من عدد من الأبراج، كما شملت مجموعة من الفخاريات المصنوعة محليًا، وكذلك مواد مستوردة من بلاد الرافدين والبحرين وإيران ووادي السند، كما تدل عظام الحيوانات التي تم تنقيبها إلى أن السكان احتفظوا بعدد من الحيوانات المدجنة مثل الأغنام والماعز والماشية والجمل، وكذلك

استفادوا من البيئة البحرية الغنية واستهلكوا الأسماك والسلاحف والدلافين[٣]. وهذا ما يدل بشكل واضح على ازدهار المنطقة حضاريًا وعمرانيًا، حيث كانت سهولة استغلال المعادن وخاصة النحاس في الجبال من أسباب تدعيم العمران خلال الألف الثاني قبل الميلاد.

كما تم اكتشاف مستوطنة تعود إلى عصر أم النار (الألف الثالث قبل الميلاد) في البديه بالإضافة إلى المدافن الجماعية في قدفع، والتي تعتبر من أغنى المدافن المنقبة في دولة الإمارات، وهي كما يبدو أدلة عمران العصر الحجري.

ويعتبر الاستيطان في الإقليم أقدم من ذلك بكثير، إذ ذهب البعض إلى أن المنطقة كانت موطناً للإنسان الحجري القديم، الذي خلف منحوتات وأدوات تعود إلى الألف السابع قبل الميلاد. لذلك فإن هذه المواقع الأثرية، تساعد على إعطاء أفكارًا شاملة لدراسة مراكز الاستقرار البشري في الإقليم، وبالتالي يمكن القول أن هذه المنطقة كانت ملائمة لمعيشة الإنسان، خاصة وإنها كانت أقل جفافاً مما هي علية الآن. ويذكر كثير من المؤرخين أن هذا النطاق كان موطناً لحضارة ماجان، التي تعني باللغة السومريه "جبل النحاس". وقد عثر في المواقع الأثرية مواد مختلفة منها مواد مصنوعة من النحاس، فضلاً عن وفرة هذا المعدن في صخور جبال الشميليه أو جبال الحجر في الإقليم. بينما تعكس كلمة "ماجان" باللغة الآشورية، طبيعة النشاط الاقتصادي وخاصة النشاط البحري لسكان الإقليم، فكلمة ماجان مركبة من لفظي "ma"وتعني الناس، و "Gan" وتعني السفن[٤]. وقد دلت الآثار التاريخية ارتياد التجار في العصور التاريخية المختلفة لسواحل الإمارات كجزيرة أم النار، ورأس الخيمة، وكلبـــــاء، واشتهر سكان الإقليم بحبهم لركوب البحار، بحكم طبيعة أرضهم الساحلية وانفتاحه على المحيط الهندي، حيث عملت مواضع العمران كمراكز تجارية هامة، وكانت هناك رحلات بحرية بين ماجان وميلوخا في السند عمل خلالها السكان على نقل المواد الأولية التي تنتجها ماجان من فلزات النحاس والحجارة الجيدة. وقد دعم العمران القديم بالإضافة إلى النشاط التجاري أيضًا، معرفة نظام الأفلاج الذي عرف في الإقليم ابان حقبة جبل حفيت (٣٢٠٠ – ٢٥٠٠ ق.م) وحقبة أم النار (٢٥٠٠ – ٢٠٠٠ ق.م). فقد كانت مستوطنات المنطقة الشرقية مستوطنات زراعية تعتمد على نظام الأفلاج لوفرة المصبات والمجاري المائية في تلك الحقب. كما كانت تعمل في

صناعة وصهر معدن النحاس وتصديره الى الخارج، وبالمقابل كانت تستورد الخزف والفخار وغيرها من منتجات الحضارات المجاورة.

كما تجدر الإشارة إلى أن أكثر المؤرخين يرون أن الفينيقيين استقروا فترة من الزمن على شواطئ سهول الباطنة، بعد هجرتهم من جنوب الجزيرة العربية، قبل أن ينتقلوا إلى الساحل السوري، ولذلك سموا مدينه "صور" على شاطئ البحر المتوسط تيمناً باسم مدينتهم الأولى "صور" على ساحل خليج عمان. وفي القرن الثاني قبل الميلاد، هاجر إلى الإقليم بعض سكان قبائل نجد واليمن، وبعد انهيار سد مأرب حوالي عام ١٢٠ ق م(*) تكاثرت هجرة القبائل اليمنية إلى الإقليم وكانت معظمها من قبائل الأزد بقيادة مالك بن فهم الأزدي.

٢. الساحل الشرقي في ظل الإسلام وقبله

كانت أراضي إقليم عمان في الفترات الإسلامية الأولى تدعى الغبراء أو الغبيراء، ولكن هذا الاسم لم يدم طويلاً، وتغلب لفظ عمان على بقية الأسماء. وكان لسكان منطقة الخليج العربي وخليج عمان علاقة بحرية واسعة بمختلف الحضارات، وكان لهم الفضل الكبير في تسهيل التبادل التجاري فيما بين هذه الحضارات، وبقيام الإمبراطورية الساسانيه عام ٢٢٥م نشطت الحركة الملاحية في المنطقة، بصورة خاصة حين أسس "أردشير" عددًا من الموانئ البحرية لتأمين التبادل التجاري بين فارس وشرقي إفريقيا.

ولم تكن لتدوم فترات الازدهار هذه حتى تشهد المنطقة موجات من الغزو الأجنبي، كان أهمها حملة "سابور الفارسي ذو الأكتاف) (٣١٠- ٣٧٩م)، حيث أفشى بين سكان الإقليم القتل وسفك فيهم الدماء، ثم عطف على البحرين فأبادها، ثم اليمامة، إلا أن العرب ردوا الكرة على الفرس حينما انتصر عليهم مالك بن فهم الأزدي في قلهات في عمان وطردهم منها سنة ٥٣٦م(٥).

(*) وهناك فريق من الكتاب يرى أن انهيار سد مأرب كان في عام ٤٥٠ قبل الميلاد.

وكان الفرس يطلقون على عمان اسم "مزون"، وقد قيل أن اسم مزون كان يطلق خاصة على دبـــا، واستدل بذلك على تسمية يزيد بن المهلب "بالمزوني" ومن الثابت تاريخيًا أن المهلب بن أبي صفره من أهالي دبـــا.

وهناك من الشواهد ما تدل على أن دبا كانت عاصمة عمان منذ الجاهلية، حتى انتقلت العاصمة إلى صحار في العصر الإسلامي، وذلك بعد أحداث الردة وكانت دبا أهم المراكز العمرانية في المنطقة، وكانت تمثل الميناء التجاري الأول في إقليم عمان كله، وقد وصفها الطبري "بالمصر والسوق العظمى"، أما ابن حبيب البغدادي فيصفها بأنها "إحدى فرضتي العرب يأتيها تجار الهند والسند والصين وأهل المشرق والمغرب"(٦). لذلك كانت من أهم مراكز العمران البشري خلال فترة ما قبل الإسلام وبعده.

أما دخول الإسلام في المنطقة فكان في السنة الثامنة للهجرة، حينما أرسل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، عمرو بن العاص وأبو زيد الأنصاري، إلى جيفر وعّباد ابناء الجلندي بن المستكبر الأزدي، بكتاب يدعوهما فيه إلى الإسلام، وبعد مشاورات ابني الجلندي لجماعة من الأزد أسلما وأسلم معهما أهل عمان بلا قتال. وقد ادعى بعد المستشرقين أمثال "ميسور" و"كاتيافي" "وويلكنسون"(٧) أن عمان فتحت تحت ضغط جيش جرار يقوده عمرو بن العاص، كما ادعوا أن أهل عمان لم يدخلوا في الإسلام عن قناعة، وإنما للتخلص من الحكم الفارسي على بلادهم، وإن قصدهم كان المحافظة على حكم أبناء الجلندي. ومن الملاحظ أن تلك الادعاءات غير مستندة على وقائع أو مصادر تاريخية، وغاية ما فيها الاستنباط والتخمين، فقد تجاهلوا الرباط البيئي المشترك لعموم سكان الجزيرة العربية وعدم وجود تنافس قبلي بين المسلمين وأهل عمان كبعض القبائل العربية المجاورة للمدينة المنورة. والمتتبع لمختلف المصادر التاريخية القديمة، مثل: تاريخ الأمم والملوك للطبري، والكامل في التاريخ لابن الأثير، والمحبر لابن الحبيب البغدادي، وغيرهم، يعلم بأن دخول أهل عمان في الإسلام كان بلا قتال كما لم يكن لأغراض أخرى غير طلب الحق، والشواهد والنصوص التاريخية تثبت ذلك منها حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أهل عمان، حيث يروى أنه قال "رحم الله أهل غبيراء، آمنوا بي ولم يروني"(٨).

وأما أحداث الردة التي جرت في المنطقة، فلم تكن تمثل غالب سكان عمان وإنما ارتد عن الإسلام فئة من الناس لكون حركة الارتداد هذه كانت امتدادًا لحركة عصيان كبيرة وقعت في إقليم البحرين[*]. لاسيما وأن المرتدين كانوا من أنصار أبناء مالك بن فهم، الذين كانوا يسعون في استرداد الحكم من أبناء الجلندي الذين هم من بني معولة بن شمس، لذلك انضموا تحت لواء لقيط بن الحارث بن مالك بن فهم الأزدي، الملقب بذي التاج. وهناك من قال أن القوم لم يرتدوا[٩]، وإنما شحوا عن أموالهم، واستدلوا بذلك الحوار الذي جرى بين أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما عندما قال عمر للصديق: "يا خليفة رسول الله قوم مؤمنون، وإنما شحوا عن أموالهم". لكن يبدو من استقراء الأحداث أنها كانت ردة حقيقية، خاصة بعد ادعاء زعيمهم لقيط بن مالك النبوة، وشتمهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم عندما دعاهم حذيفة بن محصن الغلفاني إلى التوبة، كما أن الخليفة الصديق لم يكن يفرق في الحكم بالارتداد بين مانعي الزكاة جميعًا سواء من منعها جحودًا أو شحًا، ولذلك قاتلهم جميعًا.

ومن الأمور التي تشهد على وقوع ردة كبيرة وحرب ضروس بين المسلمين والمرتدين، مقبرة "أمير الجيوش" التي لا زالت موجودة إلى الآن في مدينة دبا، والتي قدر عدد قتلاها بعشرة آلاف نفس [١٠]. وتجدر الإشارة أيضًا أنه توجد في دبا منطقة تعرف إلى اليوم باسم "الردة".

وبعد رجوع الإقليم إلى حظيرة الإسلام من جديد، أخذ سكانها يتفانون في المشاركة في الفتوحات الإسلامية، وفي الإسهام والسعي لبث روح العلم والمعرفة في أنحاء العالم الإسلامي، فقد فتح عثمان بن أبي العاص جزيرة كاوان وهي جزيرة تابعة لفارس، تعرف الآن بجزيرة "قشم" أو "جسم". وتولى القاضي كعب بن سور الأزدي القضاء على البصرة في خلافة عمر، وأصبح المهلب بن أبي صفره واليًا على خراسان، وبرز الخليل بن أحمد الفراهيدي، وأبو بكر بن دريد في العروض واللغة والشعر.

---

[*] كان إقليم البحرين قديمًا يشمل المنطقة الممتدة من البصرة إلى عمان وكانت تسمى أيضًا "خط عبد القيس" كما كانت تضم بقية مدن هجر الداخلية، وجزر الخليج العربية، وكانت القطيف عاصمته.

وقد زاد شأن مدن الساحل الشرقي التجاري والحضاري بعد الفتوح الإسلامية. وفي رحلته المسماة "بتحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" ذكر ابن بطوطة أن كلبـــــاء وخورفكان وصحار كلها مدن ذات أنهار وحدائق وأشجار نخل. ويقول المسعودي: "وأرباب المراكب من العمانيين يقطعون هذا البحر إلى جزيرة قنبلو من بحر الزنج، والعمانيون من أرباب المراكب يزعمون أن هذا الخليج المعروف بالبربري موجة عظيم كالجبال الشواهق وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عرب من الأزد وينتهي هؤلاء إلى بلاد سفالة والواق واق من أقاصي أرض الزنج"(١١).

وحينما توجه القائد محمد بن القاسم لفتح أقاليم مكران والسند في العصر الأموي، كان لسكان الساحل الشرقي من الامارات عبر سواحله الدور الرئيسي في التكاتف والتآزر التام ما بين القوات البرية والبحرية للحملة، وكان لهم نصيبًا وافرًا في نجاحها.

في بعض الفترات حاول الإقليم الانفصال عن الدولة الأموية التي أنفذت إليها جيوشها وأعادتها إلى حظيرتها. أما الدولة العباسية فقد أولت أمر الملاحة في الإقليم بالغ اهتمامها، فأنشأت فيه الموانئ والمنائر التي تشتعل بالنيران ليلاً لتهتدي بها السفن، إلا أن إقليم عمان حاول الانفصال ثانية إلى أن تم له استقلاله التام في عهد الخليفة هارون الرشيد وفي هذه الفترة دخلت المنطقة في صراع داخلي واقتتال على السلطة.

ولعل من أهم آثار الحركة الملاحية النشطة في الإقليم، ازدياد تجارة الرقيق عبر سواحله إلى عاصمة الخلافة العباسية، مما أدى اجتماع مجموعات كبيرة منهم في العراق إلى اشتعال ثورة الزنج، التي كادت تعصف بالخلافة العباسية.

كما تعرض الإقليم ردهًا من الزمن في تاريخه الإسلامي لسيطرة حركة هدامة قادها القرامطة الباطنيون، فقد تمكن أبو سعيد الحسن الجنابي بمهاجمة عمان وافتتحها عنوة وألحقها بقاعدة نفوذه في البحرين، إلا أن آثار هذه الحركة الفكرية والعقائدية كانت شبه معدومة بين سكان المنطقة، الذين كان لهم دورًا كبيرًا في إنشاء جاليات عربية إسلامية في كل من الصين وجزر المحيط الهندي، ونتيجة جهودهم مع إخوانهم البحارة من أبناء الخليج العربي، انبثقت هذه الكتلة الإسلامية الكبرى المنتشرة في آسيا وأفريقيا.

٣. الساحل الشرقي عند وصول الأوروبيين للمنطقة

استمرت السيادة الملاحية للعرب طيلة قرون طويلة في الاقليم، حتى طرأت على الدولة الإسلامية عوامل داخلية وخارجية غيرت مجرى الأحداث وأضعفت دورهم التجاري والملاحي، وذلك بدخول السفن البرتغالية إلى المنطقة، ونشوب التنافس الاستعماري بين الدول الأوربية. فكانت رحلة فاسكو دي جاما إلى الهند مستفيدا من كتب وخرائط الملاح العربي أحمد بن ماجد، بداية عهد جديد أثرت على كثير من الجوانب السياسية والاقتصادية والعمرانية في المنطقة ككل، حيث كانت بداية الاستعمار الأوربي لمنطقة الخليج العربي، ويمكن اجمال الأسباب التي أدت إلى تعرض المنطقة للتدخل الأوربي:

١. الحماسة الشديدة للمستكشفين الأوربيين للوصول إلى الهند، والاستفادة من ثرواتها،
٢. سوء الأحوال السياسية والفوضى التي كانت تعاني منها عمان، نتيجة المشاكل الداخلية لحكام عمان في ذلك الوقت،
٣. أضف إلى ذلك قلة اهتمام الدولة العثمانية بالمنطقة إلا بعد أن تغلغل البرتغاليون فيها، وسيطرتهم على كثير من المدن الساحلية الهامة، كمسقط وصحار وكلبـــاء وخورفكان ودبا ورأس الخيمة، وانشغالهم بالفتوحات التي حققوها في أوربا ودول البلقان. كما أن الدولة الصفوية في إيران لم تكترث بالتحركات البرتغالية، لحين احتلالهم جزيرة هرمز، وذلك أن الدولة الصفوية كانت منصرفة بكامل ثقلها إلى شمال فارس.

بعد تأسيس دولة اليعاربة في عمان عام ١٦٢٤، وتوحيد كلمة القبائل العمانية، وإنهاء الصراع القبلي، استطاع ناصر بن مرشد اليعربي، ومن بعده سلطان بن سيف اليعربي من طرد البرتغاليين ليس من عمان فقط بل حتى من بعض المستعمرات البرتغالية في الهند وشرق أفريقيا (١٢).

وكانت دبا إحدى أهدافهم العسكرية فقد استطاع القائد خميس بن مخزوم بمهاجمة القاعدة البرتغالية في دبا حيث لم تستطع دفاعات البرتغاليين أن تصمد أمامه، فانهارت مقاومتهم وهرب القائد البرتغالي وجنوده بحرًا واستسلم من تبقى من الحامية البرتغالية.

أما بالنسبة للإنجليز فإن تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية عام 1600 كانت الخطوة الأولى لهم في الدخول إلى الهند والخليج العربي، وسرعان ما كونت هذه الشركة إمبراطورية اقتصادية تتدخل في الشئون الداخلية للبلدان، وتؤدي دورًا مؤثرًا في رسم السياسات الداخلية والخارجية، وقد استطاعت بريطانيا حسم، الصراع الأوربي في الخليج لمصلحتها مباشرة، تحت شعار القضاء على القرصنة، وتجارة الرقيق، فقد هاجمت السواحل العربية، وقامت بغزو رأس `الخيمة وحرقها، وخورفكان مرات عديدة، ثم عقدت اتفاقية عام ١٨٢٠ وسميت بمعاهدة الصلح العامة وبعد أقل من ربع قرن، وقعت إمارات الساحل معاهدة الصلح الأبدي مع بريطانيا عام ١٨٥٣م فكانت هذه المعاهدة بمثابة النهاية الفعلية للمقاومة المحلية للنفوذ البريطاني.

ونتيجة لعدم احترام الإنجليز وغيرهم من الأوربيين، السيادة العربية على أراضيهم ومياههم الإقليمية. أضف إلى ذلك تعرض السفن والموانئ العربية إلى الضرب والنهب، فقد خاضت بعض الموانئ والقبائل العربية مقاومة شرسة ضد التدخلات التي كانت تسعى للسيطرة والتحكم على الممرات التجارية من قبل السفن الأوربية في مياه الإقليم، وخاصة قبيلة القواسم، لهذا السبب أطلق الإنجليز على الساحل اسم "ساحل القراصنة" وبعد التنازل عن مقاومة الأوربيين، تم تغيير مسمى الساحل لدى المستعمر الاوربي إلى "الساحل المتصالح أو الساحل المهادن".

أما بالنسبة لهولندا فقد كان لها دورًا كبيرا في منطقة الخليج العربي بعد سنة ١٦١٤، وقد وقفوا مع الإنجليز في البداية، ولكن سرعان ما اصطدمت مصالحهما التجارية خاصة في فارس، ويبدوا أن الهولنديون تفوقوا في التجارة على الإنجليز، حتى أنهم استطاعوا السيطرة على مياه الخليج، بعد عام ١٦٤٩، إلا أن الحروب التي خاضوها في أوربا، بالإضافة إلى استخدامهم للعنف ضد الأهالي، جعل بقاء الدهاء الإنجليزي في المنطقة مدة أطول [١٣].

وبالنسبة للنشاط الفرنسي، فقد ظهر متأخرًا في المنطقة وكان معظم نشاطهم على الجانب الفارسي، عندما حاولت فارس الحصول على مساعدات فرنسية لصد الهجمات

العمانية على الساحل الفارسي، وذلك في عام ١٦٩٩م لأنه لم يكن باستطاعة السفن الفارسية التصدي للأسطول العماني في ذلك الوقت.

وبالإضافة إلى الأطماع الأوربية في المنطقة، كانت هناك دول أخرى تتحين الفرص لفرض سيطرتها على المنطقة، على رأسها إيران، فارس سابقًا. وبالفعل كانت فارس تفرض سيطرتها في أوقات الضعف خاصة عند نشوب الخلافات الداخلية بين مناطق الخليج العربي، كالذي حدث بين سيف بن سلطان ويعرب بن بلعرب على إمامة عمان، عندما طلب الأول المساعدة الفارسية للقضاء على منافسه، وبالفعل فقد أبحر الأسطول الفارسي في ١٤ مارس ١٧٣٧ إلى الساحل العماني، وأنزل قسمان من جنوده، قسم في خورفكان والقسم الآخر في رأس الخيمة، واتخذوا من خورفكان قاعدة لهم، إلا أن مصالحة سيف بن سلطان مع منافسيه، والتي كانت تتم بشكل مؤقت، بالإضافة إلى تمرد قادة الأسطول الفارسي الذين كانوا عربًا، أدى إلى هزيمة الجيش الفارسي، وبالتالي تم طردهم من البلاد.

من خلال دراسة تاريخ منطقة الساحل الشرقي يمكننا استخلاص بعض الحقائق الهامة حول الساحل الشرقي عبر مختلف المراحل التي مرت بها المنطقة، لعل من أبرزها أن الدراسات الأثرية لمستوطنات العصر الحجري القديم، وعصور المعادن تفترض أن هذه المستوطنات كان عمادها الجمع والصيد واستغلال الموارد الحيوانية البرية والبحرية والزراعة في فترات لاحقة، وقد تركت هذه المراحل التاريخية المختلفة آثارها على مراكز العمران من حيث طرق البنيان المختلفة، وطرق حياة السكان.

أما بالنسبة لطبيعة حياة السكان في عصور ما قبل التاريخ فيبدو أنهم عاشوا في جماعات منظمة منفتحة على الحضارات الأخرى، تتعاون في تحقيق الالتزامات المتبادلة بينهم، وكانت مراكز العمران أشبه بقرى كبيرة، لم تستقر أوضاعها، وكانت مخططة نوعًا ما.

أما خلال الفترة الإسلامية فليس هناك صورة واضحة تدل على نمط الاستقرار البشري، إلا أنه من الثابت من خلال التنقيبات الأثرية التي أجريت في المنطقة أن الفجيرة وكلبـــــــاء، ووادي الحلو، وخورفكان، والبدية، ودبا كانت أماكن استقرار مشهورة.

أما الفترة الأخيرة والتي تميزت بالاستعمار الأوربي فيترجح أن مراكز الاستقرار الحالية كانت هي نفسها المراكز القديمة للاستقرار باستثناء مواضع قليلة كانت مأهولة بالسكان، هجرت قبل حوالي ثلاثة أو أربعة عقود زمنية فقط، مما أوصل كثير من المدن ومراكز العمران القديمة إلى قرى صغيرة جدًا وبأعداد سكانية محدودة.

ولذلك كانت المساكن التي قدرها لوريمر قبل قرن من الزمان أكثر من ٢٠٠٠ منزل في الإقليم كله، مصنوعة من سعف النخيل، وأكواخ الحصر والقليل من المساكن المصنوعة من الحجارة والطين، والواقع أن لعامل عدم الاستقرار السياسي وكثرة الغزو الأجنبي الأثر الكبير في قلة العمران في المنطقة في هذه الفترة. ومن البديهي أن ينتج عن ذلك انهيار الاقتصاد وتأخر العمران. فضلاً عن سيادة نمط من السكن الذي كان يعتمد على مواد البناء القابلة للتعرية والتحلل كالطين وسعف النخيل.

ثانيا. نشأة المدن وتطورها الحضري والسياسي

تتناول دراسة ماضي المراكز الحضرية البيئة الأصلية التي نشأ فيها العمران، حيث تبدأ هذه المراكز صغيرة متواضعة، ثم يلعب الزمن دوره حتى تأخذ الوضع الذي قدر لها أن تكونه، وقد مرت مراكز العمران في الساحل الشرقي بثلاث مراحل هي:

١. النشأة الأولى والتكوين.
٢. النمو والتطور العمراني.
٣. التطور السياسي.

١. النشأة الأولى والتكوين

لتحديد بداية نشأة مراكز الاستقرار البشري في المنطقة، لابد من العودة إلى تاريخ إنشاء هذه المراكز، والوقوف على أسباب اختيار مواضعها خاصة وأن معظم مناطق

السهول في الماضي كانت عبارة عن بحيرات شاطئية على الساحل الذي قضى على كثير من الآثار الدالة على ذلك، وأغلب محلات العمران كانت عبارة عن محلات صيد ترجع إلى حوالي ٦٠٠٠-٧٠٠٠ سنة ق م، وبعد هذا التاريخ وحوالي ٢٠٠٠- ٣٠٠٠ سنة ق م، كان سطح البحر أكثر ارتفاعًا عنه الآن بحوالي ٣ إلى ٧ مترًا على سواحل خليج عمان[١٤] وامتدت الكثبان الرملية على طول خط الساحل، وبين الكثبان والبحر انتشرت اللاجونات والخلجان، والتي ملأتها الرواسب وتمثلها السبخات الحالية.

وقد وفرت هذه اللاجونات موانئ ومرافئ لقوارب الصيد، زودت السكان بالغذاء البحري، بالإضافة إلى أنها كانت غنية بأشجار المانجروف، وهي مصدر هام للوقود والخشب اللازم للبناء في ذلك الوقت.

وبالنظر إلى مختلف نتائج اختيار المواقع في مراكز الاستقرار في المنطقة يتضح أنها كانت تتمثل على النحو التالي:

- إن أكبر التجمعات البشرية كانت في مواضع النطاق الساحلي، بالقرب من موارد البحر الوفيرة المتمثلة في الأسماك مما أتاح لهم قدرًا أكبر من التعاون والتجمع في مراكز صيد صغيرة فاقت تلك المراكز العمرانية التي نشأت في النطاقات الجبلية.

- سهولة الدفاع والحماية، حيث كانت من أبرز العوامل المؤدية إلى اختيار مواضع المراكز في مراحل نشأتها المبكرة، فالشعور بالخوف يجعل الإنسان يبحث عن الأمن في التجمع، لذلك كانت مهمة هذه المراكز توفير الأمن والطمأنينة للسكان. فكانت المراكز تتطلب وجود فرقة لحراسة الطرق والممرات كي لا تنهب القوافل، ومن هنا نشأت فكرة الأبراج والقلاع لدى السكان قديمًا، كما كانت هذه التجمعات تحتاج إلى سيد يحميها ضد الغزاة فظهرت بذلك الأشكال الأولى للحكومات، وعزز تأمين وسائل الحماية على نمو الحياة الاقتصادية وازدهارها.

- يمكن أن نضيف إلى العاملين السابقين أن مواضع مراكز العمران الأولى في الساحل الشرقي من دولة الامارات كانت قريبة من مصادر مادة بناء المساكن الدائمة والمؤقتة. فالطين والحجارة يشكلان مواد منتشرة في المنطقة، ويمكن الحصول على الخشب من جذوع أشجار النخيل أو أشجار السمر والسدر والغاف.

- كما أن مدى القرب من النبع المائي يحدد مكان التجمع البشري إلى الشرق من المرتفعات، وإذا كان المصدر المائي يتحكم في اختيار الموضع فحسب، فإن غزارة مياهه تؤثر في نمو المركز البشري الذي يقوم بجواره.

مورفولوجية المدن عند النشأة

كانت معظم مراكز العمران عند نشأتها تقوم بوظيفة رئيسة أو وظيفتين أولهما الصيد البحري وثانيهما الزراعة بالإضافة إلى تربية الحيوان، وقد تكيفت مورفولوجية تلك المراكز مع موقعها على ساحل البحر والأخوار، ولذلك فقد كان تركيب تلك المراكز بسيطًا يشتمل على المرفأ الطبيعي في الخور أو الساحل ثم يليه إلى الداخل قليلاً، مكان لبيع الأسماك وبعض الحوانيت البسيطة، وعلى مكان مرتفع أو محمي كان يوجد بيت الحاكم أو القلعة وحولها مساكن حرسه، كما كان يقام بالقرب من مقر الحاكم المسجد الرئيسي، ثم تقام مساكن المقربين من الحاكم، وعلى الجانب الآخر تأتي مساكن المواطنين التي كانت تبنى بدون تخطيط أو انتظام، بشوارع وأزقة غير معبدة ومتعرجة وإلى القرب من مساكن المواطنين كانت توجد المزارع، والتي كانت تمثل مع البحر الأساس الاقتصادي الرئيسي لمعيشة السكان.

أما في النطاق الجبلي، ذات الاقتصاد الزراعي وتربية الحيوان، فكانت أماكن السكن تقام بشكل دائم للفلاحين، مكونة بذلك قرى متواضعة، وقد بنيت في بعضها مساكن من الحجارة، وفيها حصن صغير للشيخ المحلي الذي يحكمها، وتحتوي الأماكن الأكثر فقرًا على مساكن العريش، وعلى صحن صغير تم بناؤه من الطين والسعف والحجارة.

ويذكر لوريمر في كتابه *"معجم الخليج وعمان ووسط الجزيرة العربية"* الذي أعده ما بين أعوام ١٩٠٣ – ١٩١٥ وهو الكتاب الذي اشتهر باسم "دليل الخليج" أحجام بعض المراكز العمرانية في المنطقة، فقد ذكر أن كلبـــــــاء كان بها ٤٥٠ منزلاُ يسكنها النقبيين، والبلوش والزعاب، ومن منطقة بستك. وكان بها ١٦ مركبًا للتجارة والسفر تنقلهم لمسقط، ومكران، والموانئ الإيرانية، بالإضافة إلى ١٤ مركبًا لصيد السمك، ويعيش السكان من الصيد والزراعة والسمك المجفف "الجاشع" والتبغ(١٥). فيما كانت خورفكان تتكون من ١٥٠ منزلاً، يسكنها ٨٠٠ نسمة معظمهم من النقبيين يعيشون على التمور

وزراعة القمح والغوص، أما البدية فكانت تتكون من ٣٠٠ منزلاً، ويتجه منها حوالي ١٠ مراكب إلى السيب، ومسقط، كما أن للسكان ٨ قوارب صيد.

كيفية نشأة المدن

بدأ الاستقرار في موضع مدينة كلبـــــــاء منذ نيف وسبعة آلاف سنة، تقريبًا ومن الطبيعي أن تتعرض المدينة خلال هذا التاريخ الطويل للعديد من دروب التغيير والتبديل، إلا أن الاعتقاد السائد أن بداية نشأة المدينة الحالية كانت بالقرب من الحصن الذي يتوسط منطقتي الساحل والظهير الزراعي في الغرب بالإضافة إلى موضع في السور، وموضع آخر في خور كلبـــــــاء، وقد ارتبط اختيار هذه المواضع بوجود الموارد بالقرب منها سواء كانت موارد مائية أو زراعية، وإن كان بعضًا من كبار السن قد أشاروا إلى أن أصل نشأة المدينة كان إلى الغرب قليلاً من الحصن على جانب وادي وسام وكان ذلك الموضع يعرف باسم "غارات"(١٦).

وفي أغلب الظن أن ميزة إمكانية كشف ومراقبة جميع الطرق والمناطق التي تحيط بموضع مدينة الفجيرة هي التي شجعت على اتخاذ موضع التل شرق مضب لقيام مدينة الفجيرة قديمًا، ولا شك أن القلعة التي أنشئت على هذا التل، تجسدت فيها الوظيفة الإدارية للمدينة والتي كانت بمثابة النواة التي تضبط اتجاهات نمو المدينة وتطورها العمراني.

ولم تكن دبا في أول عهدها سوى عدة قرى صغيرة بالقرب من ساحل البحر ولكنها كانت تنعم بنصيب وافر من الأسماك، والتجارة البحرية، والزراعة وقد جر هذا النشاط الاقتصادي إليه النشاط السياسي وبالتالي إلى قيام مراكز عمرانية مأهولة بالسكان نواتها الحصن، والعكامية القديمة، والغرفة.

كما اختار الإنسان في الإقليم موضع القريّة التي نشأت قديمًا في مكان أبعد من الموضع الحالي الموازي للشارع العام إلى الغرب بحوالي ٢٠٠٠ متر، حيث المزارع الصغيرة التي كانت تسد حاجة ذلك التجمع البشري الصغير من الغذاء، أضف إلى ذلك اتصال السكان بالبحر الذي لا يبعد عن الموضع الأصلي بأكثر من ٢٠٠٠ متر.

وقد يتجزأ الموضع العمراني إلى أكثر من جزء ليتحاشى بذلك خطر الغمر والفيضان، حيث يفصل كل جزء وآخر فروع بعض الأودية، ويبدو ذلك بشكل واضح في مواضع

قدفع، والقريّة، والبدية وسور كلبـــــــاء، والرغيلات، وكلها أمثلة تبين البدايات الأولى لنشأة مراكز العمران التي كانت استجابة لعامل الحماية من الغمر والفيضانات الفصلية.

وبالنسبة لخورفكان فإنها نشأت كقرية تعتمد في معيشتها على ما يقدمه الخور أو "الخليج" من حماية وموارد سمكية بالإضافة إلى بساتينها وسوقها الصغير، حيث لبى الموضع الأول لها بالقرب من الميناء في حي الشرق بحاجات المدينة القديمة لمدة طويلة من الزمن، ولم تكن تشتمل في عمرانها سوى ما تكتنفه الجبال في داخلها من مساكن ومحلات بسيطة بالإضافة إلى بعض الأبراج للمراقبة.

وبالتالي يتضح من دراسة نشأة مراكز العمران في الإقليم أن المراكز العمرانية تشابهت فيما بينها في طبيعة نشأتها، وأنها خضعت للمنطق الجغرافي في نشأتها الأولى التي كانت نتيجة لقوانين الاضطرار الطبيعي أو الحرفي، وتلخصت أشكال الاضطرار الطبيعي في اجتماع السكان في بقعة معينة محمية طبيعيًا، بحيث يتوفر فيها بعض الموارد الاقتصادية، والأمر الذي جمعهم فيها هو مقاومة بعض ظروف البيئة الطبيعية، كالغمر، والفيضانات. أما الاضطرار الحرفي فيظهر فيما تتطلبه الحرف التي مارسها سكان الإقليم من عمل جماعي في مواسم محددة، كمواسم صيد أسماك البرية، أو مواسم الزراعة التي تتطلب عملاً جماعيًا.

٢. النمو والتطور الحضري

تتميز مواضع العمران البشري في أنها من صنع الإنسان، وينبغي النظر إليها ككائنات حية قابلة للنماء والبقاء، كما أنها تكون قابلة للتدهور أو الزوال. وبالنسبة لمراكز العمران في الإقليم فقد مرت بمراحل مختلفة بالنسبة للنمو والتطور العمراني، وخلاصة ما يذكره التاريخ القديم للإقليم، أن المنطقة كانت في أحيان كثيرة عبارة عن سلسلة من الحوادث السياسية، والغزو والحصار وما نتج عنها من هدم البيوت وإحراق المزارع مما أدت في النهاية إلى تدهور العمران واضمحلال معالمه، حتى أصبح من الصعب تتبع مظاهر تطورها بشكل واضح، كما أنه ليس لدينا من المصادر القديمة ما يسهل عملية تتبع نموها العمراني منذ نشأتها حتى الوقت الحاضر وإن كانت في أحيانًا أخرى مزدحمة بالسكان، ومزدهرة بالعمران، فقد روى المؤرخون[١٧] أن مياه الإقليم كانت أغنى وأغزر مما ألت

إليه في الفترة الأخيرة. ويؤكد هذا الاتجاه نمو وازدهار بعض المحلات العمرانية في الإقليم في الفترات القديمة خاصة دبا، وخورفكان، وكلبـــــــاء، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

وعمومًا فقد تميزت المحلات العمرانية الساحلية القديمة بنواياتها وأحجامها الصغيرة، وتصميمها العمراني المتمثل في بيوت طينية وسقوف خشبية مكسوة بالجريد "الدعن" أو الطين والحجارة البحرية، وامتاز العمران في ذلك الوقت بالتقارب، والتلاصق، والالتفاف حول مقر الحاكم، وحول المسجد وبالقرب من المقبرة.

أما نمو مراكز الحضر في الإقليم حتى بداية سبعينيات القرن العشرين فقد كان بطيئًا، وقائمًا على أساس النظام المفتوح فلم تتم وفق نموذج مميز، بل خضعت بالدرجة الأولى لمؤثرات البيئة الطبيعية وخاصة المناخ والاعتبارات الاجتماعية والثقافية، ومنذ بداية ثمانينيات القرن العشرين صار النمو بمعدلات سريعة، لتزايد النهضة العمرانية بممارسة الدولة لمهامها في رفع المستوى المعيشي للسكان، ونتيجة للهجرة المتزايدة، حدث ضغط شديد أدى إلى الإسراع بالأعمار لتوفير السكن والخدمات اللازمة للسكان، وكان أقرب الحلول هو الشروع بتنفيذ المشاريع العمرانية، ولكن كمشاريع مستقلة جاءت على شكل مخططات جزئية خاصة بمناطق ومشروعات معينة، دون وجود إستراتيجية شاملة تحكم محاور واتجاهات وشكل توسع هذه المراكز، مما يدل على عدم وجود خطط طويلة المدى تحكم السياسة العمرانية في تلك الفترة.

والحقيقة أنها كانت مشاريع ملحّة لا تقبل التأخير على الرغم من أنها جاءت لمعالجة نواحي محدودة ولآجال قصيرة، ولهذه الأسباب لم تدم طويلا بسبب التبدل السريع الذي تمر به الدولة في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسكانية.

وقد واكب استثمار الأموال العائدة من البترول عدة عمليات ساهمت بدرجة كبيرة في تطور النمو العمراني في الإقليم، ومن هذه العمليات، تغير الأنماط القديمة للمساكن، حيث هدمت معظم المباني القديمة وامتد عبرها الزحف العمراني في مختلف الاتجاهات سواء المحاذية للشواطئ أو على ضفاف الأودية الجبلية ولم يقتصر التغير في هذه الفترة على التوسع والامتداد السريع فحسب بل شمل أيضًا تغير طرز البناء، وتغير مواد البناء، كما

شمل إزالة وإعادة البناء في المناطق السكنية القديمة، خاصة على جوانب الشوارع التي شقت في تلك المناطق، كما شمل تخطيط هذه المراكز استحداث الشوارع بين أجزائها حتى في بعض الأحياء القديمة، وكان من مساوئ سرعة توسع العمران وإنشاء الشوارع دون مراعاة قضية تصريف مياه الأمطار السيلية، أن أصبحت الشوارع الرئيسة تتحول إلى برك مائية في مواسم سقوط الأمطار، أما الشوارع غير المرصوفة فتتحول إلى مستنقعات وأوحال وإلى بؤرات تنفث الغبار في أوقات الجفاف. ولعل قلة الأمطار وندرة سقوطها في الإقليم هو السبب في انصراف المخططين عن التخطيط لمشاريع إنشاء المجاري وتصريف المياه في مراكز العمران.

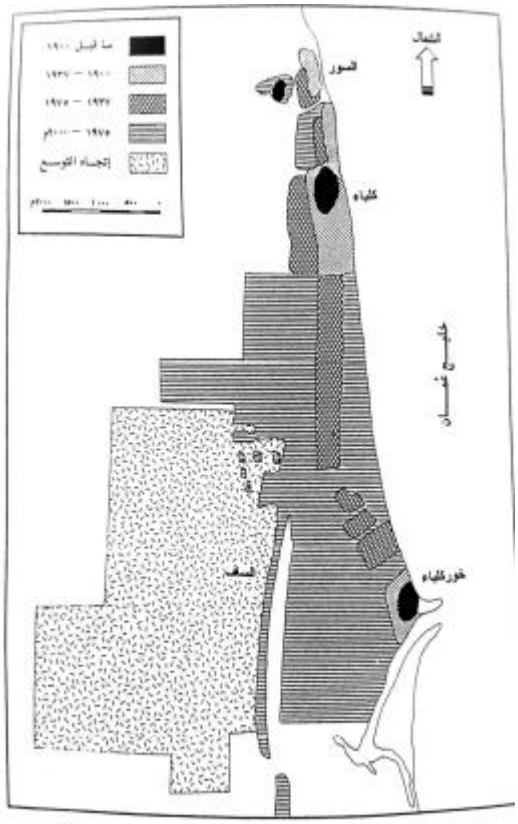

شكل (١٠) تطور النمو العمراني في مدينة كلبـاء مابين ١٩٠٠– ٢٠٠٠م

وهكذا فإن التطور الحضري في مرحلة تسعينيات القرن العشرين يعتبر امتدادًا وتركيزًا للتطور الذي بدأ في العقدين الماضيين لهذه الفترة، كما أنه امتاز مثله بتغلب التمدد الأفقي على التمدد الرأسي، فمعظم الأبنية في مناطق التوسع الحديثة تتكون من طابق أو طابقين باستثناء مدينة الفجيرة أما الأحياء القديمة فتتسم بسمات خاصة تميزها عن بقية الأحياء الحديثة، فالمساكن عبارة عن كتل متراصة لا نظام لها ولا تخطيط وكلها تتكون من طابق واحد وعادة ما تكون مخصصة لسكن أسرة كبيرة، في حين أن الأحياء السكنية الجديدة قد روعي في بنائها شروط لم تكن متوافرة في الطراز القديم، كأن تفصلها عن بعضها شوارع مستقيمة ومتسعة، كما روعي في بناء الوحدة السكنية منها شروط أفضل من حيث التشمس والتهوية والنظافة والمتانة، وفي سبيل نشر وتعميم هذا النمط

العمراني قامت الحكومة بنزع ملكية مساحات كبيرة من الأراضي وهدم آلاف المساكن، التي كانت تعوق التخطيط الحديث، وتعويض أصحابها عنها بمبالغ مالية، وكان للحكومة الاتحادية والحكومات المحلية جهد وافر في توفير المساكن الشعبية لفئة كبيرة من سكان الإقليم ممن أزيلت مساكنهم أو محدودي الدخل، وعلى الرغم من ذلك فإن فئة كبيرة وخاصة من الشباب بحاجة ماسة إلى السكن الملائم لهم ولعائلاتهم الجديدة والتي تزيد يومًا بعد يوم.

وإذا ما ألقينا نظرة فاحصة، على الخرائط العمرانية لأهم مدن الإقليم تبين بوضوح أن المدن القديمة واقعة عند مخارج الأودية بالقرب من الساحل، كما يمكن ملاحظة تأثير المظاهر الطبوغرافية المحلية على شخصيتها، فقد اتخذت رقعة البناء الأساسية من السهول مستقرًا لها لسهولة البناء وشق الطرق، فمدينة كلبـــــــــاء مثلاً امتدت كتلتها السكنية بشدة باتجاه الجنوب مع محاور مواصلاتها حتى اقتربت من الحدود السياسية مع سلطنة عمان، وأصبحت هذه المحاور بمثابة إطار يحدد اتجاهات نموها وشكلها المورفولوجي في المستقبل كما يتضح ذلك من النظر في خريطة تطور النمو العمراني للمدينة شكل (١٠) ومع نمو المدينة المتزايد والمستمر يلاحظ أنها انقسمت إلى أحياء سكنية ممتدة مع شوارعها الجديدة والنامية، بمعدلات سريعة نسبيًا نحو المواضع الفسيحة بالقرب من سهل الساف خاصة على الطريق المؤدية إلى الغيل وسلطنة عمان.

إن أسوأ نتيجة لهذا النمو للمدينة هو التهامها للبيئة الطبيعية، حيث تحولت الأراضي الزراعية وغابات السمر والغاف إلى مناطق سكنية وارصفة شوارع، أما في جهة الشمال جهة قرية السور، فقد أصبحت هذه المناطق نماذج تتكرر في مجال تحويل الأراضي الريفية إلى أراضي سكنية، فقد ابتلعت قرية السور الغربية المزارع المجاورة لاسيما الشرقية منها، حيث نشأت منطقة مساكن شعبية للمواطنين.

وفي حالة توسع المدينة المنتظر يجب عدم تمديدها باتجاه الغرب، خشية أن تغشى المدينة البساتين وتبتلعها على الرغم من إهمالها من قبل ملاكها وتعرضها للجفاف، بل ينبغي المحافظة على جميع البساتين وإيجاد الحلول الممكنة لمشاكل المياه وتطويرها وتخطيطها بعناية فائقة لتكون مناطق الرئة التي تتنفس منها المدينة، ولتكون مناطق إنتاج

بعض المحاصيل الزراعية، والمنتوجات الحيوانية للسكان، فضلاً عن كونها مناطق جمال تخدم الوظيفة الترفيهية، على أن يوجه امتداد المدينة نحو الجنوب بمحاذاة الشارع العام، والجنوب الشرقي نحو خور كلبـــــاء، خاصة إذا ردمت السبخات الساحلية ذات المستوى الأراضي المنخفض التي تتعرض لعوامل المد والجزر الساحلية، على أن لا يتجه التوسع العمراني كثيرًا إلى الغرب في سهل الساف لخاصيته الزراعية الجيدة في حالة توفر المياه اللازمة. ويبدو أيضًا أن الوقت قد حان للتفكير نحو الاتجاه في التوسع الرأسي للعمران في الإقليم بشكل عام.

كذلك توضح الدراسة الميدانية والصور الجوية، والمخططات العمرانية القديمة، وخريطة تطور النمو العمراني شكل (١١) أن نواة خورفكان كانت تتمثل في حي الشرق، وأن الكتلة المبنية لمدينة خورفكان قد أخذت في الامتداد نحو الداخل باتجاه الجنوب الغربي من خط الساحل، فقد أعاقت إمدادات السفوح الشرقية لجبل العوينة، وجبل الشيخ توسع رقعة المدينة نحو الغرب من ناحية، كذلك فعلت السفوح الغربية لمنحدرات جبل خورفكان وجبل الخبة وجبل اليراديية[١٨] فأعاقت امتدادها جهة الشرق والجنوب. ولم تجد المدينة في الفترة الأخيرة مجالاً للنمو إلا في الاتجاه نحو التوسع الرأسي حيث أخذت المساحات الخالية في التناقص الواضح، وتناقصت الفواصل المساحية الكبيرة بين أحياء المدينة كمديفي، وحياوة، أو اليرموك، والقادسية التي لم تعد معزولة أو هامشية، وما زالت حركة البناء مستمرة بكثافة وبالتالي شهدت المدينة تطورًا هائلاً في مساحة كتلتها المبنية.

ولم يكن العمران في دبا الفجيرة يتجه نحو الشمال والشمال الغربي، حتى التحم بقرى وم، والمهلب، وأصبحت مجرد أحياء داخل مدينة دبا الفجيرة، وقد كانت كل قرية من هذه القرى نواه عمرانية ولكنها لم تلبث أن اختفت، فقد تكونت المدينة من عدة نوايات صغيرة أولها العكامية القديمة بالقرب من الميناء، وصمبريد، والغرفة، والردة، ثم توسعت في فترة لاحقة في تسعينيات القرن الماضي نحو الراشدية، وتمثل الرفاع حاليًا جهة التوسع العمراني للمدينة جهة الجنوب الغربي، كما في الشكل (١٢).

أما دبا الحصن التي تشرف على دوحة دبا بطول وعرض كيلو متر تقريبًا، فقد توسعت في الفترات الأخيرة حتى أصبحت قضية توسعها العمراني في المستقبل من أهم

المشاكل التي ستواجهها البلدة، فقد أعاقت الحدود السياسية مع دبا البيعة التابعة لسلطنة عمان توسعها نحو الشمال، والحدود السياسية مع إمارة الفجيرة في دبا الفجيرة توسعها نحو الغرب والجنوب، لدرجة أن أصبح إيجاد مساحات خالية لبناء المدارس لاستيعاب الأعداد المتزايدة من الطلاب من الأمور الصعبة، وبلا شك ستتوجه الأنظار مرة أخرى نحو الأراضي الزراعية والبساتين الخضراء، كما هو واضح في الصورة الجوية شكل (١٣)، وفي هذه الحالة أيضًا ينبغي التنبه إلى أنها حلول مؤقتة ووقتية ينبغي دراستها جيدًا، وإيجاد الحلول المناسبة بشأنها.

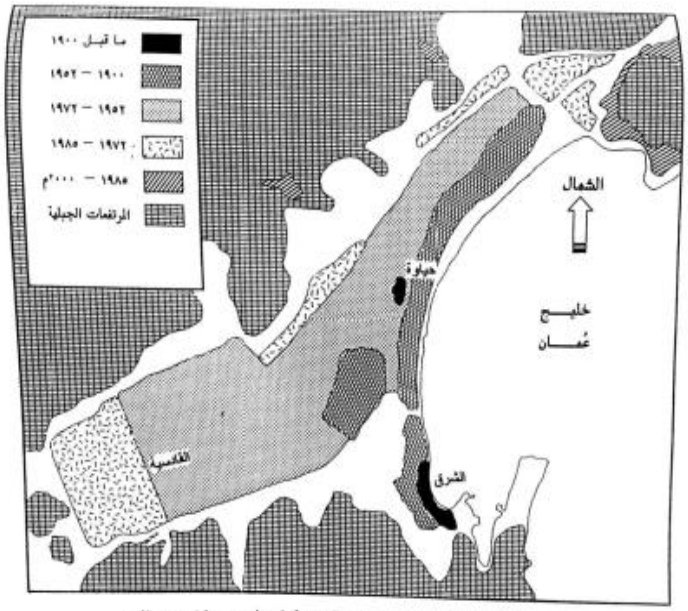

شكل (١١) تطور النمو العمراني في مدينة خورفكان مابين ١٩٠٠– ٢٠٠٠م

ومن الملاحظ في السنوات الأخيرة أن نمو مراكز العمران الرئيسة في الإقليم، جعلها تضم المحلات والقرى الصغيرة القريبة منها، بحيث أصبحت ضاحية من ضواحيها، فقد ضمت مدينة كلبـــــاء كل من سور كلباء، وخور كلباء، والغيل، وطريف، وشملت مدينة الفجيرة كل من الرغيلات، ومريشيد، ومضب، بينما ضمت خورفكان اللؤلؤية، وزبارة، وحصي، كذلك شملت مدينة دبا على رول دبا، والكبوس، والردة، والمهلب، وصمبريد، والغرفة واستنادًا إلى الخرائط العمرانية للبلديات، يلاحظ أن المراكز العمرانية قد توسعت

حدودها من جهاتها الجنوبية والشمالية أكثر منها جهة الغرب، وتحول شكل الكثير منها إلى ما يشبه المستطيل محاذيًا طول الساحل، وثمة ملاحظة هامة أيضًا تتضح من خرائط العمران في الإقليم، وهي أن تمدد المراكز كان يبدأ من المركز على شكل حلقي إلى النمو باتجاهات معينة دون الأخرى، بل كاد يتوقف في بعض الاتجاهات، ولكنه لم يتحول مع ذلك إلى النمو الإشعاعي بشكل واضح، كما أنه من المهم تقرير أن ذلك النمو العمراني في عدد المنشآت والمنازل في المنطقة لم ينشأ بظهور مواضع جديدة بقدر ما كانت نتيجة النمو الداخلي للمواضع القائمة بالفعل.

وقبل أن نختم هذه الدراسة يجدر بالذكر الإشارة إلى العوامل المختلفة التي ساعدت على نمو مراكز العمران في الإقليم بصفة عامة وللمدن الرئيسة بصفة خاصة، لعل في مقدمة هذه العوامل النمو الاقتصادي، والتزايد السكاني السريع نتيجة الهجرة الوافدة، وثمة عامل ثالث كان له أثر كبير في نمو المراكز نحو الشمال والجنوب وهي طرق المواصلات المحاذية للساحل، كما ينبغي ألا ننسى عاملاً هامًا هو العامل الثقافي والتعليمي، فقد كان للنهضة التعليمية التي شملت الدولة والاهتمام المتزايد بإنشاء المدارس أثره الكبير في اتساع رقعة مراكز العمران بتخصيص مساحات كبيرة لمنشئاتها المختلفة، أضف إلى ذلك أثر الموضع حين لعبت ظاهرات السطح دورًا أساسيًا في تحديد مواضع المراكز، كما أنها لا تزال تلعب دورًا أساسيًا أيضًا في نموها وتطور رقعتها، إذ تشكل الأودية مع التلال والمرتفعات الجبلية إلى الغرب منها الخطوط التي تحدد النمو العام للمراكز.

وقد بدأ العمران يتخلل بعض هذه التلال الجبلية، ويصل إلى أطراف البعض الآخر كما هو الحال في اللؤلؤية والبدية، حيث تخللت المساكن جبل البلوش في البدية إلى أن امتدت بالقرب من قواعد السفوح الجبلية المرتفعة، كما طمست بعض هذه التلال الصغيرة منها كما في خورفكان غرب المدينة.

لذلك يبدو أنها ستكون عائقًا قويًا أمام تمدد العمران في الاتجاه الغربي ولفترة طويلة في المستقبل، وبالتالي فإن مظاهر النمو الحديثة للعمران لم تتجاوز كثيرًا خصائص الموضع الطبيعية.

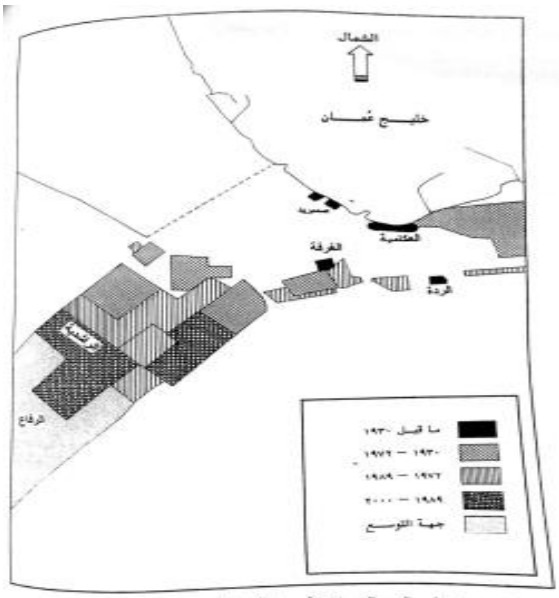

شكل (١٢) تطور النمو العمراني في مدينة دبا الفجيرة مابين ١٩٣٠– ٢٠٠٠م

شكل (١٣) صورة جوية لدبا الفجيرة ودبا الحصن

٣. العامل السياسي وتطور مراكز العمران

يلمس القارئ للتاريخ السياسي لمنطقة الساحل الشرقي في عصوره المختلفة أن المنطقة لم تستقر على سلطة سياسية واحدة لفترات طويلة من الزمن، وإنما كانت تنتقل تحت نفوذ دول وأقاليم مختلفة عبر تاريخها الطويل، فقد كانت في صراع مع نفوذ الفرس في عصور ما قبل الميلاد، ثم قوى نفوذ العرب بحيث تمكنوا من طرد الفرس في فترة لاحقة، وبظهور الإسلام انضوت المنطقة تحت الحكم الإسلامي، وفي العهد الأموي بدأت بوادر الانفصال تظهر عن السلطة المركزية في الشام، وقد تحقق لها ذلك في العصر العباسي، أما في العهد العثماني كانت المنطقة تابعة لها أسميًا فقط، حيث لم تظهر آثار النفوذ العثماني فيها بشكل كبير، حتى وصول البرتغاليين واحتلالهم بعض المراكز الهامة في الإقليم، وبعدها بدأت المنطقة تعاني الصراع والتنافس الغربي للسيطرة عليها.

وبخروج الإنجليز، وقيام دولة الإمارات العربية المتحدة في ٢ ديسمبر ١٩٧١م شهدت المنطقة استقرارًا سياسيًا، فقدته طوال عصور طويلة، والواقع أن الشكل السياسي المشاهد في دولة الإمارات وسلطنة عمان كانت بداياته تتشكل وتتطور منذ بداية القرن السادس عشر أي في فترة التدخل الأوربي في المنطقة لذلك سوف يكون الاقتصار على التطور السياسي للمنطقة في الفترة المذكورة، وأثر ذلك على مراكز العمران البشري فيها.

كان إقليم الساحل الشرقي، فضلاً عما تعانيه من سيطرة أوربية عليها وعلى منطقة الخليج العربي بشكل عام، تشكل منطقة صراع بين العمانيين والقواسم أصحاب النفوذ الحقيقي في الإقليم، من ذلك ما وقع في عام ١٨٠٨ عندما حشد السيد سعيد بن سلطان (سلطان عمان) قواته، بقيادة عمه قيس الذي احتل حصن خورفكان وأباد كل من كان فيه، مما أثار غضب الزعيم القاسمي سلطان بن صقر الذي استطاع أن يجمع جيشاً مقداره اثنا عشر ألف مقاتل، وزحف نحو خورفكان، وتم الهجوم على الجيش العماني، حتى انتهت المعركة بهزيمة جيش السلطان، وقتل قائد القوات العمانية، كما أصيبت سفينة الإمام سعيد بطلقة مدفع[١٩].

وبعدها بسنوات قليلة، استولت عمان على الإقليم مرة أخرى، ولكن اتصال أحد الثائرين على السلطان العماني، بالقواسم طالبًا منهم المساعدة، لقاء إعادة مدن خورفكان وكلبـــــــاء ودبا والمناطق المطلة على ساحل الشميلية. جعل الشيخ سلطان بن صقر ينقض بقواته على منطقة شناص العمانية فطوقها برًا وبحرًا، فاستسلمت الحاميات العمانية في ساحل الشميلية، ومنها عادت المنطقة مرة أخرى إلى حكم القواسم.

وفي عام ١٨٥٢م وقع السلطان سعيد على وثيقة يعترف بها بأن منطقة الشميلية والساحل الممتد من بلدة خطم الملاحة إلى مدينة دبـــا من توابع الإمارة القاسمية(٢٠). من ناحية استطاع الشيخ حمد بن عبد الله الشرقي، بمساندة بعض القبائل من إرساء قواعد إمارة الفجيرة عام ١٨٨٤م خصوصًا بعد موقعة "البثنة" في عام ١٩٠١م، وبعد مرور قرن من الزمان أصبحت مدينة الفجيرة عاصمة إقليم الساحل الشرقي والمدينة الرئيسة فيه.

ومن الحركات الانفصالية التي تمت في المنطقة عن الإمارة القاسمية في الشارقة ما حدث في كلبـــــــاء، حيث قبل البريطانيون استقلال كلبـــــــاء الكامل عن الشارقة في عام ١٩٣٦م، واعترفت بريطانيا بالشيخ سعيد بن حمد القاسمي حاكمًا مستقلاً على كلبـــــــاء، ولأسباب إدارية وضعت إمارة كلبـــــــاء تحت اختصاص المعتمد السياسي في البحرين مباشرة.

وجاءت قضية الاستقلال بعد رفض حاكم كلبـــــــاء محاولة الضابط البريطاني (ألبان) في مسألة إنشاء مطار عسكري للطائرات البريطانية، لذلك اعتبر الإنجليز أن شيخ الشارقة الذي لم يستطع ممارسة سلطانة ومسئولياته في كلبـــــــاء، في واقع الأمر قد تنازل عن سلطانة ونفوذه في هذه المنطقة (٢١)، وبالطبع كان هدف الإنجليز تحقيق مطالبهم السياسية والعسكرية بإنشاء مطار عسكري في المنطقة. وعلى كل حال فبعد وفاة سعيد بن حمد تولى حكم كلبـــــــاء ابنه حمد تحت وصاية "باروت" إلا أن بقية القواسم عارضوا وصاية باروت، حتى تم الاتفاق على قبول الشيخ خالد بن أحمد وصيًا، وفي فترة وصاية الشيخ خالد امتد نفوذ إمارة كلبـــــــاء من كلبـــــــاء إلى دبا، بالإضافة إلى وادي القور التابع لرأس الخيمة وبلدة الذيد، وفي عام ١٩٥١م عادت كلباء الى امارة الشارقة مرة اخرى.

ويلاحظ حدوث توزع مناطق الساحل الشرقي بين إمارتين هما الشارقة والفجيرة، بالإضافة إلى جزء صغير تابع لسلطنة عمان المتمثل في قرية "مدحاء" وقد نتج عن هذا الشكل السياسي في الإقليم حدوث بعض الاضطرابات في أوقات متفرقة، مثل النزاع بين كلبـــــاء والفجيرة، والنزاعات المتكررة بين دبا الحصن ودبا البيعة، وبين أهالي خورفكان وأهالي مدحاء.

ويمكن تحديد المناطق التابعة للإمارتين كما في الشكل (١٤) على النحو التالي:

– إمارة الشارقة: تشمل المناطق التابعة لها مدينة كلبـــــاء، وخورفكان بالإضافة إلى مدينة دبا الحصن.

– إمارة الفجيرة: تمتد المناطق التابعة لها من الرغيلات شمال سور كلبـــــاء حتى قدفع جنوب خورفكان ومن البدية إلى دبا، هذا بالنسبة للمناطق الساحلية، أما المناطق الجبلية فمعظمها تابعة لإمارة الفجيرة في الإقليم باستثناء مناطق تابعة للشارقة مثل وادي الحلو، شيص، النحوه. كما أن بعض المراكز العمرانية التابعة لإمارة الفجيرة تقع إلى الغرب من منطقة الحدود العمانية، جنوب غرب خطم الملاحة مثل أوحلة وعين الغمور.

يتضح مما سبق أن التحولات السياسية في المنطقة انعكست على مراكز العمران، وخاصة فيما يتعلق بالنمو العمراني، فقد تميز بصغر حجمه، كما ساعد على سيادة نمط العمران الدفاعي الذي تمثل بشكل رئيسي في القلاع والأبراج.

كما يمكن ملاحظة الدور السياسي البارز للمدن مثل كلبـــــاء، والفجيرة، وخورفكان، حيث تبين أهمية مراكز النطاق الساحلي في تركز القرار السياسي فيها وكمراكز للقوة والتأثير باعتبارهما مراكز الثقل العمراني والنشاط والاقتصادي في الإقليم، كما لا يخفى تأثر مراكز العمران في نموها واتساعها، باختلاف وتنوع السلطة السياسية حيث ركزت كل إمارة الاهتمام بمراكزها العمرانية، فقد اهتمت إمارة الشارقة بمدن خورفكان، وكلبـــــاء، ودبا الحصن، والمراكز التابعة لها في المنطقة الجبلية، مما انعكس ذلك على نمو وازدهار هذه المراكز، كذلك ركزت إمارة الفجيرة اهتمامها بمدينة الفجيرة عاصمة الإمارة بشكل رئيسي، بالإضافة إلى دبا الفجيرة وباقي مراكزها العمرانية سواء في النطاق الساحلي أو الجبلي.

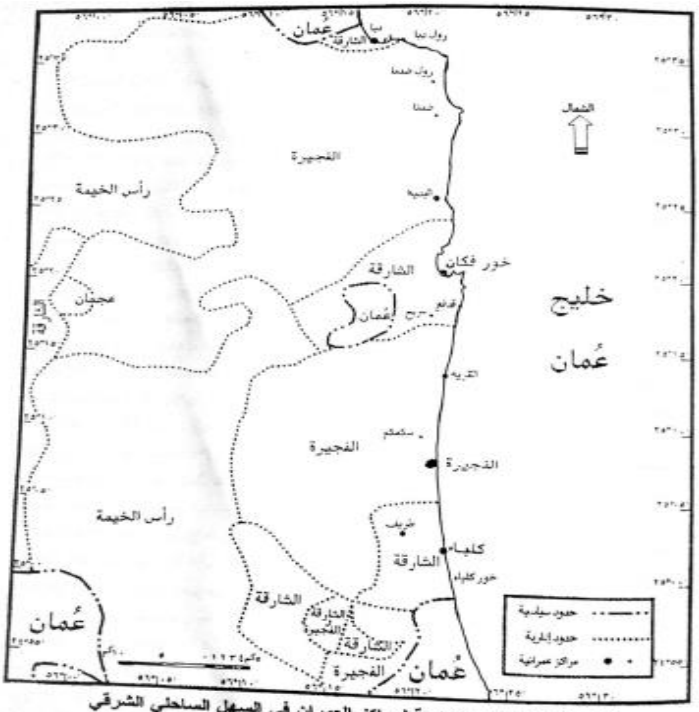

شكل (١٤) الحدود الإدارية لمراكز العمران في السهل الساحلي الشرقي

٤. دلالات أسماء المدن والقرى

تعتبر دراسة دلالات أسماء القرى والمدن في المنطقة من الموضوعات التي تحتاج إلى جهود كبيرة لدراستها، فمن الصعوبة بمكان الإلمام بها هنا، من أجل ذلك سوف يكون الاقتصار على إلقاء الضوء على دلالات أسماء بعض هذه المدن والقرى في المنطقة، لتكوين الصورة الإجمالية عن الهيكل العام لدلالات تلك الأسماء. لأنها تفيد في تتبع الملامح التاريخية والعمرانية لمراكز العمران، بالإضافة إلى معرفة أصول توزيع وانتشار هذه المراكز، كما تساهم في معرفة الملامح القديمة والصفات المميزة لهذه المراكز، إلا أنه ينبغي الحذر من تشابه وتكرار الأسماء فقد تحرف بعض الأسماء بسبب سوء النقل، أو عدم العناية في كتابة النبرات، أو وضع النقاط أو نسيانها أو تغيير مواضعها [٢٢].

وتعد كتب معاجم البلدان وكتابات المؤرخين خاصة القدماء بالإضافة إلى من بقي حيًا من كبار السن–على الرغم من تضارب أقوال البعض منهم مما يحول دون الجزم بحقيقة بعض الدلالات والمعاني– المصادر الأساسية لدراسة دلالات أسماء هذه المدن والقرى.

وليس بين أيدينا من كتابات الأقدمين من يعرف دلالات هذه الأسماء مما يجعل من الضروري الإستئناس ببعض الأشخاص من أعضاء مجتمع الإقليم الذين يعرفون عاداته وتقاليده، من أجل ذلك تم مقابلة الكثير منهم وسؤالهم عن مدلولات المناطق التي يعيشون فيها. وخلاصة ما تم استنتاجه من هذه الدراسة أن معظم معاني أسماء مراكز العمران ودلالاتها تدور حول معاني مكونات البيئة الطبيعية، من نباتات أو مظاهر تضاريسية أو أسماء حيوانات كما اكتسبت بعض المناطق أسمائها من بعض معاني الماء، مثل الغيل والفلج، فاليمنيون يطلقون اسم الغيول على المجاري المائية الصغيرة التي تنبثق من العيون. ومثل ذلك الفجيرة التي اشتق اسمها من كثرة تفجر الينابيع حولها قديمًا.

أما اسم "الباطنة" وهو ما يطلق على السهول الساحلية الممتدة في كلاً من سلطنة عمان ودولة الإمارات، فيحمل أكثر من معنى، فالباطنة قد تعني ما هو مخبأ من الداخل، أو قد تعني الانخفاض وعدم وضوحها من بعيد، وقد تشير إلى البطن أي الأمام أو مقدمة الشيء، وهي عكس "الظاهرة" وهو أيضًا إقليم جغرافي يمتد إلى الغرب من جبال الحجر في عمان، والتي تشمل معاني الوضوح والارتفاع، أو ظهر الشيء أو خلفه (٢٣).

ومن المعروف أن أسماء الأماكن في كثير من الأحيان تتصل بالشكل الطبوغرافي للموقع خاصة عند نشأة المراكز الأولى، وتتمثل هذه بكثرة في مراكز العمران الجبلية التي ترتبط بلفظة "الوادي" مثل وادي شيص أو وادي النحوه وادي حام، وادي سدر أو وادي الحلو، أو لفظة "سيح" وهي السهول الحصوية مثل سيح الساف، أو سيح خورفكان، أو سيح دبا، أو لفظة الخور مثل خور كلبـــــــاء، وخورفكان، أو لفظة رأس، مثل رأس ضدنا، ورأس اللؤلؤية، ورأس دبا، والتي تبرز نتوءًا بارزًا في البحر.

ولا يخفي أهمية التحصين وصفة المنعة وهذا ما يبرر ورود أسماء تحمل هذه المعاني مثل لفظة "السور" مثل سور كلبـــــــاء، ودبا الحصن وهي أسماء تعكس الاستجابة لمعطيات بشرية تدل على الحماية والإحاطة، وقد يستدل على مقطع السور على أن

المراكز العمرانية قديمًا كانت مسورة وبها أبراج للمراقبة، وذلك للوقاية من الغزوات التي كانت تتعرض لها. وقد يفسر مقطع السور بأن القرى التي تبدأ بلفظ السور كانت بمثابة نطاق أمن وحماية أو سور حماية للموضع من الهجمات التي كانت تتعرض لها المدينة، مثل "سور كلبـــــــاء" التي تقع بشقيها الشرقي والغربي في شمال المدينة وشمالها الغربي ومن هذه الجهات كانت تأتي معظم الغزوات والغارات على مدينة كلبـــــــــاء قديمًا.

والأسماء في المنطقة غائرة الجذور في التاريخ القديم، ولا تقتلع بسهولة وإن تحولت بالتحريف، فعلى سبيل المثال يعتقد أن "البثنة" أصلها البستان لكثرة الخضرة والمياه الجارية فيها طوال العام، وأن اسم "اللؤلؤية" يحتمل أنه كان لؤلؤة، ثم جرى تحويره إلى لولية خاصة في أيام الغوص في الماضي وأخيرا اللؤلؤية وجاءت تسمية "دبا" بفتح أولها من اسم الجراد الصغير قبل أن يطير، وذلك لكثرته في هذا الموضع قديمًا.

أما "كلبـــــــاء" فتعددت الآراء في سبب تسميتها ودلالة هذه التسمية فمن قائل بسبب استقرار قبيلة بني كلبان العمانية في هذه المنطقة، ويذكر البعض أن التسمية جاءت بسبب شكل موضع العمران الأول على الساحل والذي كان يشبه حرف الباء فسميت "كلبـــــــاء" أي مثل حرف الباء. والاحتمال الأرجح أن اسم كلبـــــــاء يعود الى اسم شجرة او نبات الكلب ومفرده كليبة ويطلق عليها محلياً "العاقولة" وهي شجرة سطحية تعرف بكثافة شوكها الذي يبدو كالكلاليب. واسم مدينة كلبـــــــاء موغل في القدم فقد ذكرها ابن بطوطة في رحلته كما ذكرها ياقوت الحموي في معجم البلدان.

ومن الجدير بالذكر أن كلبـــــــاء كانت تسمى أيضًا "غالّه" والغالة عبارة عن لسان مائي صغير جدًا يمتد في اليابس يسمى "البندر" وكانت هذه الألسنة منتشرة في الماضي على طول الساحل في مصبات الأودية حيث الانخفاض النسبي لسطح الأرض، فكانت المياه تتوغل إلى الداخل لتصل إلى بعض بساتين المدينة، وكانت السفن تفرغ حمولتها في نهاية هذه البنادر(٢٤).

وأما "الغرفة" فهذا الاسم يتكرر في منطقتين في الإقليم مرة في مدينة الفجيرة والأخرى في مدينة دبا الفجيرة، وقد ارتبطت اسم الغرفة بالأبعاد الحضارية والعمرانية فإن الغرفة

بضم الغين كما يشير ياقوت الحموي "العلية من البناء" وهو اسم قصر في اليمن ولما كان السكان من أصول يمنية، فيحتمل أن الاسم جاء مع بعض هذه القبائل إلى المنطقة.

كما يشير موضع "الردة" إلى تأثير الاسم بالحرب التي دارت في دبا بين المسلمين والمرتدين، كذلك اسم "المهلب" فهو أيضًا مشتق من اسم المهلب بن أبي صفرة، وهذه المواضع تمثل الأبعاد التاريخية والحضارية للمنطقة. أما موضع "القريّة" بتشديد الياء فقيل معناه مشتق من عود الشراع أو ما يعرف بالدقل كما ورد في القاموس المحيط وهو ما يشير إلى النشاط الملاحي في المنطقة، وقيل أنه تصغير للقرية، ومن الأسماء المشتقة من واقع حياة السكان الاقتصادية اسم "زبارة" والتي تعني الخوصة التي تخرج من النواة لتصبح نخلة(٢٥).

وتعكس أسماء مثل "ضدنا" تأثير الاستعمار على مراكز العمران وأسمائها فإن هذا الاسم مشتق من صلابتها ضد الاستعمار خاصة الاستعمار البرتغالي، وبشهرة رجالها وقوة تحملهم ووقوفهم ضد الأعداء، والغزاة لذلك كان اسم ضدنا ملازمًا للصد والهجوم. وقد يكون لكثرة حيوان الضب الذي كان يكثر من الحفر في منطقة "مضب" ذات المياه الوفيرة سبب في هذه التسمية، كما لعبت عملية البحث عن مصادر المياه دورًا في تسمية بعض مراكز العمران فيروي أن رجلاً من منطقة "قراط" ذهب إلى مكان قريب من البحر فجعل يحفر حفرة حتى ظهر منها الماء العذب. فسمي هذا المكان "مربح"، أي ربح باكتشافه الماء العذب الذي يعد أساس الاستقرار. كما سميت "خورفكان" بسبب امتداد الخليج الذي يسمى بالخور بين فكي جزيرة سيرة الخور ورأس اللؤلؤية، على شكل فكين يمتد بينهما الخور، وكان هذا الخور قديمًا يعرف بخور "مخيبي" بسبب اختباء السفن القاسمية فيه أثناء مقاومتهم الجهادية ضد السفن الإنجليزية، لذلك عرف الموضع باسم خور فكان أي الخور الذي يقع وسط فكان جبليان.

وربما كانت بعض الأسماء المكررة في المنطقة مثل كلبـــــــاء، وسور كلبـــاء، دبا، ورول ديا، ضدنا ورول ضدنا تشير إلى التوالد والانسلاخ عن المحلة الأقدم التي تحمل الاسم الأصلي، وهي ما تعرف في جغرافية العمران بالمحلات التابعة. كما ساهمت العوامل السياسية والعسكرية في ظهور تسميات حديثة كبعض الأحياء والمواضع في

المنطقة كحي "المحطة" في كلبـــــــاء وذلك نسبة إلى محطة المطار العسكري الذي شيده الإنجليز في المدينة.

يتضح من العرض السابق لدلالات أسماء المراكز العمرانية التفاعل الواضح بين إنسان المنطقة مع مكونات البيئة الطبيعية من حوله، حيث استخدم الكثير من الأسماء، بالإضافة إلى الموروثات التاريخية والحضارية التي أثرت في فكرة وطريقة حياته، كما تأثرت بالاستجابات الدفاعية والأمنية في تسمية تلك المراكز.

خاتمة

تناول البحث تاريخ مدن كلباء وخورفكان ودبا الفجيرة ودبا الحصن عبر العصور حيث أشارت المسوحات والتنقيبات الأثرية إلى ما يدل على ازدهار المنطقة في العصور القديمة حضاريًا وعمرانيًا، حيث كان استغلال النحاس في جبال الحجر من أسباب تدعيم العمران خلال الألف الثاني قبل الميلاد.

وفي الفترات التاريخية الحديثة تغلغل الأوربيون في المنطقة وسيطروا على المراكز العمرانية الساحلية، منها خورفكان ودبا وكلبـــاء، ما أدى الى تدهور مراكز العمران، إلى أن وصل عدد المساكن بحسب تقدير لوريمر قبل قرن من الزمان أكثر من ٢٠٠٠ منزل في الإقليم كله، مبنية من سعف النخيل، وأكواخ الحصر ومساكن قليلة مبنية من الحجارة والطين، حيث كان لعامل عدم الاستقرار السياسي وكثرة الغزو الأجنبي الأثر الكبير في قلة العمران في المنطقة في هذه الفترة، فضلاً عن سيادة نمط من السكن الذي لا يصمد أمام الظروف البيئية لفترات طويلة.

كان لسهولة الدفاع والحماية، دورًا كبيرًا في اختيار مواضع المراكز في مراحل نشأتها المبكرة، ومن هنا نشأت فكرة إنشاء الأبراج والقلاع لدى السكان قديمًا. وقد تكيفت مورفولوجية تلك القرى والمدن مع موقعها على ساحل البحر والأخوار. ولذلك كان تركيب تلك المراكز بسيطًا يشتمل على المرفأ الطبيعي في الخور أو الساحل ثم يليه إلى الداخل قليلاً، مكان لبيع الأسماك وبعض الحوانيت البسيطة، وعلى مكان مرتفع أو محمي كان يوجد مقر الحاكم وحوله مساكن حرسه، كما كان يقام بالقرب منه المسجد الرئيسي، ثم تقام مساكن المقربين من الحاكم، وعلى الجانب الآخر تأتي مساكن المواطنين التي كانت تبنى بدون تخطيط أو انتظام، بشوارع وأزقة غير معبدة ومتعرجة.

سار النمو في مراكز الإقليم منذ بداية ثمانينيات القرن العشرين بمعدلات سريعة فقد تغيرت الأنماط القديمة للعمران، حيث هدمت معظم المباني القديمة وامتد عبرها الزحف العمراني في مختلف الاتجاهات سواء المحاذية للشواطئ أو على ضفاف الأودية الجبلية. واتضح من دراسة العامل السياسي أن التحولات السياسية في المنطقة انعكست على مراكز العمران، وخاصة فيما يتعلق بالنمو والتطور العمراني. كما يمكن ملاحظة الدور السياسي البارز لمدن الساحل والتي تبين أهمية مراكز النطاق الساحلي في تركز القرار السياسي فيها كمراكز للقوة والتأثير باعتبارها مراكز الثقل العمراني والسكاني.

وخلاصة ما تم استنتاجه من دراسة دلالات أسماء المراكز العمرانية في الساحل الشرقي أن معظم معاني أسماء مراكز العمران ودلالاتها تدور حول معاني مكونات البيئة الطبيعية، من نباتات أو مظاهر تضاريسية. كما وجدت أسماء تعكس الاستجابة لمعطيات بشرية تدل على الحماية والإحاطة، كمقطع "السور" وأسماء تعكس الأبعاد التاريخية والحضارية كمنطقة "المهلب". كما ساهمت العوامل السياسية والعسكرية في ظهور تسميات حديثة لبعض الأحياء والمواضع في المنطقة كلفظ "المحطة".

المراجع

١. ١٥ ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الكتاب اللبناني بيروت، ص١٨١.

٢. أبي الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض ١٩٧٣، ص١٠٧.

٣. ١٩. أحمد محمد عبد الله حميد، دلالات أسماء المحلات في محافظة القليوبية، المجلة الجغرافية العربية، السنة الثامنة عشر العدد ١٨، القاهرة ١٩٨٦، ص٨٤.

٤. أحمد محمد علي، دبا في الجاهلية وصدر الإسلام، الطبعة الأولى ١٩٨٨، جمعية دبا الحصن للثقافة والفنون، ص١٨.

٥. البعثة الآثارية الفرنسية (١٩٨٤)، جامعة ليون، تقارير: المسح الأثري في إمارة الشارقة، دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، ص١٨.

٦. ١٣. ج، ج، لوريمر، ١٩٧٠، دليل الخليج، ترجمة الديوان الأميري، قطر، القسم الجغرافي، صفحات متعددة.

٧. جريدة الخليج، (١٩٩٩)، العدد ٧٢٩٠ الصادر بتاريخ ١٩٩٩/٥/٥م ص٢٩.

٨. حسن أبو العينين، ١٩٩٦، مرجع سبق ذكره، ص ص ١٧٣، ١٧٥.

٩. ١٦. خرائط طبوغرافية للساحل الشرقي، مقياس ١: ٥٠٠٠٠ بلدية الشارقة، فرع خورفكان.

١٠.سالم مشكور، نزاعات الحدود في الخليج معضلة السيادة والشرعية، مركز الدراسات الإستراتيجية والبحوث والتوثيق، بيروت، ص٣٧.

١١.عبد الله بن حميد السالمي، تحفة الأعيان لسيرة أهل عمان، مكتبة الإمام نور الدين السالمي، مسقط ١٩٩٥، ص٨٥.

١٢.فاروق عمر، الخليج العربي في العصور الإسلامية، دار القلم، دبي ١٩٨٣، ص٤١.

١٣.١٧. فالح حنظل، المفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة، الجزء الأول، لجنة التراث والتاريخ أبو ظبي، ص٣٠٧.

١٤.قدري قلعجي، الخليج العربي بحر الأساطير، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الثالثة ١٩٩٥، بيروت، ص٦٤.

١٥.٢٠. محادثات شخصية مع بعض كبار السن في المنطقة.

١٦.٢٠. مقابلة شخصية مع احد المواطنين في المنطقة.

١٧.محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء الثالث، موسوعة عز الدين للطباعة والنشر بيروت ١٩٨٥، ص١٥٨.

١٨.محمد بن سعد كاتب الواقدي، الطبقات الكبرى، بيروت دار صادر للطباعة والنشر ١٩٦٨، ص١٦٤.

١٩. مصطفي عقيل، التنافس الدولي في الخليج العربي ١٦٢٢- ١٧٦٣م، مؤسسة العهد للصحافة والطباعة والنشر، الدوحة ١٩٩٤، ص.١٢٥

٢٠. محمد مرسي عبد الله، دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها، دار القلم، الكويت ١٩٨١، ص٤٢٧.

٢١. ياقوت الحموي، معجم البلدان، الجزء الرابع، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٤، ص١٩٤.

٢٢. مصطفى مدوكي ٢٠١٠، دراسة تطور المدينة، والتغييرات المرفونمطية للمجال الفيزيائي، دراسة حالة مدينة تقرت

٢٣. صحيفة البيان (٢٠٢٢)، الساحل الشرقي للإمارات، ١٠ سنوات ذهبية في مسار التنمية المتواصل، ١٠ أكتوبر ٢٠٢٢.

https://www.albayan.ae/across-the-uae/news-and-reports/2020-10-27-1.3997519

٢٤. مجلة الثقافة الشعبية، (٢٠٢٢)، العدد ٣٥، البحرين، الأسواق الشعبية القديمة في الامارات.

https://www.folkculturebh.org/ar/index.php?issue=35&page=article&id=674

المراجع الأجنبية

1. Ahmed, K.G. (2012), Urban social sustainability: A study of the Emirati local communities in Al Ain. J. Urban. Int. Res. Placemaking Urban Sustain. 2012, 5, 41–66. [CrossRef].

2. Alabdouli K, Hussein K, Ghebreyesus D, Sharif H (2019) Coastal runoff in the United Arab Emirates-The hazard and opportunity. Sustainability 11 (5406):1–19. https://www.mdpi.com/2071-1050/11/19/5406 . Accessed 19 August 2018
3. Burby, R.J. (Ed.). (1998), Cooperating with nature: Confronting natural hazards with land use planning for sustainable communities. Washington, DC: Joseph Henry Press.
4. Campbell, A., Converse, P. E., & Rodgers, W. L. (1976), The quality of American life: Perceptions, evaluations, and satisfactions. New York, NY: Russell Sage Foundation.
5. Carmona, M., Heath, T., Oc, T., & Tiesdell, S. (2003), Public places, urban spaces: The dimensions of urban design. Oxford, UK: Architectural Press.
6. Carstensen, L. L. (2006). The influence of a sense of time on human development. Science, 312 (5782), 1913–1915. doi:10.1126/science. 1127488
7. Hall, P. (2014). Cities of tomorrow: An intellectual history of urban planning and design since 1880 (4th ed.). Chichester, UK: Wiley-Blackwell.
8. Jehad, A., Arar, M. & Boudiaf, B., (. 2008), Urban growth in the U.A.E.: Challenges and metamorphoses, in capital cities, wicked problems: Best practices in planning and policy response mechanisms. 10th Sharjah Urban Planning

Symposium, American University of Sharjah: Sharjah, UAE, 23–25 Nov.

9. Kay's, (1986), Emirates Archaeological heritage, Motivate publishing. Dubai.

10. Moudon, A. V. (2013). Street connections. In E. Talen and Congress for the New Urbanism (Eds.), Charter of the New Urbanism (2nd ed., pp. 122–123). New York, NY: McGraw-Hill.
11. R. Sawires, J. A. Peláez, M. AlHamaydeh, J. Henares, "A state-of-the-art seismic source model for the United Arab Emirates," Journal of Asian Earth Sciences, vol. 186, DOI: 10.1016/j.jseaes.2019.104063, 2019.
12. Taileb, A., Arbaoui, A. & Boudiaf, B., (2008), Understanding urban systems and sprawl in the U.A.E.: Case studies from Ajman, Sharjah, Dubai and Abu Dhabi. Instant Cities: Emergent Trends in Architecture and Urbanism in the Arab World, American University of Sharjah: Sharjah, UAE, 2008.
13. Welsch, H. (2006). Environment and happiness: Valuation of air pollution using life satisfaction data. Ecological Economics, 58(4), 801–813. doi:10.1016/j.ecolecon.2005.09.006
14. Weng, Q. (2001). Modeling urban growth effects on surface runoff with the integration of remote sensing and GIS. Environmental Management, 28, 737–748.
15. Weng, Q. (2001). Modeling urban growth effects on surface runoff with the integration of remote sensing and GIS. Environmental Management, 28, 737–748.
16. World Weather (2019), Average rainfall amount, Fujairah 2019, https://www.worldweatheronline.com/lang/ar/fujairah-weather-averages/fujairah/ae.aspx . Accessed 26 July 2019.

Dr/Ibrahim Aldarmaki
Assistant professor
International Studies Department
Zayed University

Abstract

Archaeological surveys and excavations have indicated evidence of the prosperity of the eastern coastal region. The exploitation of Capper in Al Hajar Mountains was one of the key explanations for the construction of buildings during the second Millennium BC in Kalba, Khorfakkan, Dibba Al Fujairah and Dibba Al Hisn.

In recent historical periods, Europeans penetrated the region and took control of coastal urban centers, which led to the decline of urban centers. According to Lorimer's estimate, a century ago, there were only about 2,000 houses in the entire area. Traditional buildings were built of stones, mud and palm fronds. However, the factor of political instability and frequent foreign invasion had a great impact on the lack of urbanization in the region during this period, as well as the spread of a primitive housing style that does not tolerate environmental conditions for long stages.

Ease of defense and protection played a major role in choosing the locations of the cities in their early stages, hence the idea of building towers and castles for the ancient inhabitants. The morphology of the villages and cities has adapted to their location on the coast of the sea. The political transformations in the region were reflected in urban growth, as it was characterized in the past by the predominance of the defensive urbanization style represented by castles and towers. It can also be noted the prominent political role of cities such as Kalba and Khor Fakkan, the importance of the coastal centers in dominating the political decision.

The paper concluded by studying the meanings of the names of some urban centers, that most of the meanings of the names revolved around the connotations of the components of the natural environment such as plants and topographical features, such as Kalba, which goes back to the "*Kalb*" tree and its singular "*Kliba*" which is a superficial tree known for its dense thorns. It was also noted that there are names that express the human response for protection, for instance "Al Sour" and names that reflect historical dimensions, such as "Al Muhallab.